المبحث الثانى

تقسيم التوحيد بين التأصيل الشرعي والحقيقة التاريخية

إن تقسيم التوحيد بهذا الشكل الثلاثي [1] هل يصلح أو ينهض كمنهج للدلالة على وحدانية الله تعالى في الظروف والأحوال الفكرية والعقدية ؟ ... وإن لم يكن كذلك فما هو المنهج الصحيح إذا ؟

لاشك في أن هذا المنهج هو الذى جاء به القرآن الكريم وحث عليه وأمر به ، والمتمثل – على وجه النصوص – في النظر والتدبر – بعين البصيرة – في كتاب الله المفتوح .. التفكر والتدبر في الأرض وما أقلت والسماء وما أظلت ، وفي كل ما خلق الله تعالى في الأنفس والآفاق ، وهذا هو منهج أولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلي جنوبهم ، متفكرين متدبرين في كل ما ذرأ وبرأ ... وهو منهج يقوم على إقناع العقل وإمتاع الوجدان ، وإرضاء العامة والخاصة في آن معاً .

ويكفينا من هذا المنهج للدلالة على وحدانية الله – تعالى – قوله – سبحانه وتعالي – : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [2] .

والقرآن الكريم ملئ من أوله لآخره بمثل هذه الآية في المضمون والمعنى ، فكان من الواجب عند قول الحق – سبحانه – : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [3]

(١) وقد يكون غداً رباعياً أو خماسياً .. إلخ ، وهو كله اجتهاد ! سترك يا رب : أ.د/ عبد الباسط مرسى .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ١٩ من سورة محمد .

وقوله – تعالى – : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

كان من المفروض أن يقفوا عند منطوق هذه النصوص – وأمثاله – وتنتهي القضية بلا تعقيدات – ، فلماذا قسموا التوحيد إلى أنواع وأوّلوا وفصلوا ؟! ... وعليه :

- إذا كان الله واحداً ، لا من حيث العدد ، فكيف يقسم من لا يتجزأ ؟ وهو الواحد الأحد الفرد الصمد .
- إذا كان توحيد الربوبية ، وفق هذا الرأي ، قاسماً مشتركاً بين المؤمنين والمشركين ، فهل يعقل أن يكون أحد الصحابة المبشرين بالجنة هو وأبو جهل سواء بسواء في توحيد الربوبية ؟؟!! انظروا ؟ مالكم كيف تحكمون ؟! .
- ومع ذلك لننظر في القرآن الكريم متفكرين متدبرين ومن الآيات التي هي محل النظر والاعتبار هنا قوله تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (٢) . فرتب العبادة على الربوبية ، فإننا إذا لم نعتقد أنه رب ينفع ويضر ، فلا معنى لأن نعبده كما سبقت الإشارة إليه ويقول – تعالى : ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (٣) .
- ويقول ﷻ : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (٤) .

وفي السنة النبوية : قول أبي سفيان يوم أحد : «اعل هبل» ، فأجابه الرسول ﷺ:

(١) الآية ١٦٣ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٦٥ من سورة مريم .
(٣) الآية ٢٥ من سورة النمل .
(٤) الآية ٣٠ من سورة الرعد .

(الله أعلى وأجلّ) .. فانظر إلى هذا القول وقل لي : ماذا ترى في ذلك التوحيد ، توحيد الربوبية : هل هم فيه مثل المسلمين سواء بسواء ، وإنما افترقوا في توحيد الألوهية فقط ؟؟!

وما أروع قول الإمام على رضي الله تعالى عنه :

« حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله» [1] وهكذا – كما يقول العلامة د. محمد عبد الله دراز ، رحمه الله ،: « نري أن القطبين اللذين تأسست عليهما الديانة الموحدة التي يدعو القرآن لها ، يقومان إما على حقائق سبق الاعتراف بها ، أو تبني مبادئ واضحة إن أي برهان نظري لا يتطلب أكثر من هذه القوة في التدليل والاقناع » [2] وما زال التساؤل مشروعا ومستمرا : هل هذا التقسيم يتفق مع صريح المعقول وصحيح المنقول ؟

ووصف القرآن الكريم الرب بأنه الخالق المدبر ، المالك المتصرف ، ووصف الله بنفس هذه المعاني .... قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [3] فقد بدأ النص الكريم بالحديث عن الرب وختم بالحديث عن الله فكان من اللازم على رأي من قسم التوحيد أن يقول الله (اعبدوا إلهكم) حيث كانوا يعرفون توحيد الربوبية ولا يعرفون توحيد الألوهية !!.

ومن الآيات التي تدل على وحدة التوحيد، والتنوع في لغة الخطاب، قوله تعالى:

- ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [4] .

---

(١) البخارى .

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخى وتحليل مقارن ص ٨٥ .

(٣) الآيات ٢١ ، ٢٢ من سورة البقرة .

(٤) الآية ١ من سورة الأنعام .

- ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (١) .
- ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (٢)
- ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (٣) .
- ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) .
- ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (٥) .

وهنا نجد التلازم بين الألوهية والربوبية ، فهل يلجأوا إلى التأويل ؟!

المثال الثاني في الرزق : ومن ذلك قوله سبحانه وتعالي :

- ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ (٦)
- ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ (٧) .

وبجانب هذه الآيات البينات لم يحدث ولم يثبت عن أحد من صدر الأمة فضلاً عن تابعى التابعين ، فضلاً عن التابعين ، فضلاً عن الصحابة الكرام – رضوان الله تعالى عليهم أجمعين – أن دعوا أو قالوا : إن التوحيد ينقسم إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وأن من لم يعرف توحيد الألوهية لا يعتد بمعرفته لتوحيد الربوبية ؛ لأن هذا يعرفه المشركون ؟!

---

(١) الآية ١ من سورة العلق .

(٢) الآية ٥٤ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ٦٨ من سورة القصص .

(٤) الآية ٤٥ من سورة النور .

(٥) الآية ٤٠ من سورة الروم .

(٦) الآية ٢٦ من سورة الرعد .

(٧) الآية ٣٠ من سورة الإسراء .

لم يأت إطلاقاً في سنة النبي ﷺ، والتي هي البيان والتوضيح لكتاب الله تعالى ، من صحاح وسنن ومسانيد ومعاجم ، أن النبي ﷺ كان يقول لأصحابه ويعلمهم : إن التوحيد ينقسم إلى قسمين : توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وأنّ من لم يعرف توحيد الألوهية لا يعتد بمعرفته لتوحيد الربوبية ؛ لأن هذا يعرفه المشركون ؟ ! ..

عن أبي سلمة ، عن شديد بن سويد الثقفي ، قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : إن أمي أوصت أن تعتق عنها رقبة ، وإن عندي جارية نوبية ، أفيجزئ عني أن أعتقها عنها ؟ قال : « ائتني بها ، فأتيته بها ، فقال لها النبي ﷺ : من ربك ؟ قالت : الله ، قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله ، قال : فأعتقها فإنها مؤمنة »[1] .

هل ظنوا أنه فات على رسول الله ﷺأن يشرح للجارية التوحيد بقسميه واستدركوه هم عليه ؟ ! وهل عندهم اعتراض أو تحفظ على وصفه ﷺ لها بأنها مؤمنة بمجرد إقرارها بشهادة التوحيد ؟ !

ألا ما أعظمك سيدي يا رسول الله عندما جئتنا بعقيدة التوحيد السهلة السمحة، الواضحة النقية .

إن عقيدة المسلم في الرب هي بعينها عقيدته في الله ، فالرب هو المستحق للعبادة ، والله تعالى هو الخالق البارئ المصور ، وبالعكس ، وصدق الله حيث يقول : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾[2] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا يقولن أحدكم : عندي وأمتي ، ولا

(١) أخرجه أحمد ، والماوردى ، وأبو داود ، والنسائى .

(٢) الآية ٥٤ من سورة الأعراف .

يقولن المملوك : ربي وربتي ، وليقل المالك : فتاي وفتاتي ، وليقل المملوك : سيدي وسيدتي ، فإنكم المملوكون ، والرب : الله ﷻ » [1] .

إذا علم هذا :

نجد أن الربوبية صفة من صفات الله – تعالى – وليست قسماً من أقسام التوحيد، لا شكلاً ولا مضموناً ؛ لأن الرب اسم من أسمائه الحسني أجمعت عليه الأمة ، على الرغم من عدم وروده في الرواية المشهورة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

قال ابن القيم رحمه الله: فاسمه « الله » دل على كونه مألوهاً معبوداً تألّه الخلائق : محبة وتعظيما وخضوعاً ، ومفزعاً إليه في الحوائج والنوائب . وذلك مستلزم لجميع صفات كماله ، إذا يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ، ولا سميع ، ولا بصير ، ولا قادر ، ولا متكلم ، ولا فعال لما يريد ، ولا حكيم في أقواله وأفعاله .

فالربوبية إذا صفة لله تعالى وليست قسماً من أقسام التوحيد ، وإلا جعلنا القيومية مثلاً وهي من أسمائه تعالى القيوم قسماً من أقسام التوحيد أيضاً ... وهكذا في بقية الأسماء ، وبذلك تكون أقسام التوحيد بعدد الأسماء ؟!

يؤثر أن النبي ﷺ لم يزل يوم الجمعة وهو قائم بعرفة منذ كان وقت العصر إلى أن غربت الشمس في حجته التي كمل بها الدين وتمت بها النعمة يقول هذه الآية لا يزيد عليها ، فأي عبد شهد لله بهذه الشهادة التي هي شهادة الله لله سبحانه وتعالي بالوحدانية فقد كملت شهادته ، وأتم الله سبحانه وتعالي النعمة عليه ، وهي آية إعلان التوحيد الذي هو منتهى المقامات وغاية الدرجات [2] .

(١) سنن أبي داود .

(٢) تقسيم التوحيد بين التأصيل الشرعي والحقيقة التاريخية ، د . عبد الباسط اسيد مرسي .